التوحيد

التوحيد

مختصر

الشهيد مرتضى مطهَّري

إعداد

حياة شمس الدين

كلمة المؤسسة

هذه الأبحاث هي سلسلة من المحاضرات ألقاها الشيخ مطهَّري على طلبة الجامعات ورجال الفكر والمعرفة.

وكان الإمام الخميني يسمي الشهيد مطهري «أستاذ الثورة» وقد تصدَّت «مؤسسة القرى» إلى ترجمة كتب وآثار هذا الأستاذ العملاق وأوكلت ترجمة كتبه إلى الأستاذ الجليل (عرفان محمود) والتوحيد هو أول الأصول الدينية ومبدأ كل الرسالات والأديان وهو شعور موجود في فطرة كل إنسان.

وهذا الموضوع تناوله الكثير من العلماء. ولكن هذا البحث تميَّز بالبراهين والأدلّة الدقيقة المأخوذة من القرآن الكريم وتقريبها إلى أذهان غير المتخصصين في العلوم العقلية والفلسفية.

المحاضرة الأولى

التوحيد يعني الإيمان بالله وبوحدانيته تبارك وتعالى، وهو الأصل الذي تتفرع منه جميع المعتقدات الدينية.

يقول أمير المؤمنين: «أول الدين معرفته، ولذلك تكون معرفة الله هي أساس الدين ومنطلق التدين».

الإيمان بالغيب:

إن الإيمان بالغيب هو الذي يميز المؤمنين عن الكفار وإن لم يعتنقوا ديناً معيناً كالفلاسفة الإلهيين يقول تعالى في سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾.

والغيب هو الحقائق الخفية التي لا تُحس ولاتلمس، وقد استخدم القرآن كلمة الغيب وكلمة الشهادة وهي تعني الحضور وتشمل كل الموجودات التي نراها وندرك وجودها بالحس واللمس.

والإيمان بالله هو أصل الإيمان بالموجدات الغيبية الأخرى كالملائكة والوحي، والإعتقاد باليوم الآخر والمعاد.

وهناك سؤال هل أن عالم الوجود محدود ومحصور في إطار عالم الشهادة والطبيعة أم أن ثمة عالماً آخر غير هذا العالم؟

المقدمة الأولى:

في البداية من الواجب أن نعرض مسألة التوحيد بصورة صحيحة، لأن جميع الإشكالات والشكوك تنشأ لعدم التوصل إلى تصوّر صحيح لهذه المسألة.

قد يسأل البعض ويقول: أن الإيمان والتوحيد أمر فطري يتوصل إليه الإنسان بفطرته، ولو كان هذا القول صحيحاً لما اختلف الناس بشأن التوحيد، ولما انقسم الناس إلى معسكرين، معسكر الموحدين ومعسكر الملحدين.

والجواب على هذا الإشكال بالقول: أنَّ مسألة التوحيد هي نوع من المسائل التي يصدق عليها وصف «السهل الممتنع» فإذا تصورها الإنسان بصورة صحيحة لن يتردد في التصديق بها.

أما من كان لهم شبهات لأنهم تصوروا شيئاً من عند أنفسهم فيكون الإشكال والخطأ في التصوُّر.

المقدمة الثانية:

هل بالإمكان إثبات وجود الله في التاريخ الحديث؟

ظهرت في أوروبا وانتشرت في العالم فكرة تقول: إن الإنسان عاجز عن حل مسألة وجود الله، وأصحاب هذا القول لا ينكرون وجود الله ولكنهم يقولون: إن الإنسان عاجز عن إثبات وجود الله وعاجز عن نفي وجوده، فهم يرفضون منطق الإلهيين ومنطق الماديين على حد سواء، وإذا سألناهم عن سبب الرفض أجابوا: إن الإنسان لا يملك الأدوات للبحث عن هذه المسألة، ولأن أدوات البحث محصورة في دائرة المحسوسات أما ما وراءها فهو خارج عن قدرة البحث العلمي.

إن هذه النظرية ليست صحيحة!

والجواب هو أننا ندرك وجود أشياء كثيرة دون أن نحسُّ بها.

والإنسان مجهَّز بوسائل المعرفة التي تمكنه من معرفة الكثير من الأمور الغير محسوسة فالعقل يختزن دلالات لمعرفة عالم الغيب.

المقدمة الثالثة:

علينا أن لا نبحث عن الله في دائرتي الزمان والمكان. مثل السؤال: متى كان؟ وأين مكانه؟

لأن الموجودات مقيَّدة بقيد المكان والزمان، ولكن وجود الله هو محيط بكل شيء، وهو حقيقة كاملة مطلقة، وهو ليس شيئاً كسائر الأشياء في هذا العالم.

ولا يوجد حد بين العالم وبين الله، فهو موجود في الأرض وفي السماء وفي وسط جميع ذرات الموجودات على حد سواء: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأنعام: 3]. وبناء على ذلك فإن محدودية المكان لا تأثير لها على مسألة التوحيد، وكذلك لا تأثير لمحدودية الزمان.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: داخل في الأشياء لا بالممازجة وخارج عن الأشياء لا بالمباينة أي أن دخوله أو خروجه ليس نحو دخول جسم في جسم آخر.

المحاضرة الثانية

يوجد ثلاث طرق لإثبات وجود الله:

1 ـ طريق النفس والفطرة

2 ـ الطريق العلمي

3 ـ الطريق الفلسفي

طريق الفطرة:

الإحساس بوجود الله كامن في كيان الإنسان، وهو ميل ذاتي يهديه بصورة طبيعية إلى الله ويجذبه إليه، مثلما ينجذب الحديد إلى المغناطيس. وللإنسان جهازين: الأول هو جهاز العقل وهو جهاز الإدراك فهو يشعر بحواسه الخمس أو بأكثر من خمس ثم يتعقّل ويفكر بعقله، فيدرك الأشياء، وهذا الجهاز هو وسيلة للإنسان لاكتساب العلوم الطبيعية والمعارف الفلسفية.

ويوجد في الإنسان جهاز آخر وهو مركز الميول والأحاسيس، وهو يرتبط بالقلب حسب الاصطلاح وهو مجموعة من الميول والغرائز.

وهذه الميول والغرائز لا تنحصر بدائرة الغرائز الحيوانية المعروفة كغريزة الرغبة في الطعام والجنس بل تشمل مجموعة من الميول والتطلعات السامية.

مثل: الميل إلى الفضائل الأخلاقية، كالإحسان وخدمة الخلق وأعمال الخير، والميل إلى البحث والتحقيق وهو المعروف بحب الإستطلاع والمعرفة.

عندما يواجه الإنسان أي أمر مجهول بالنسبة إليه يجد في داخله ما يدفعه إلى كشفه والتعرف عليه، سواء كانت لديه مصلحة من كشفه أو لم تكن ثمة منفعة تعود عليه وأكثر العلماء يقرّون بوجود هذه الميول عند الإنسان، وإن أنكره بعض الناس، هذا الميل الموجود في قلب الإنسان وفي عقله يجعله مرتبطاً بحقيقة تبعده عن سجن نفسه وذاته وتدفعه للتوجه إلى الله سبحانه وتعالى، والقرآن يثبت هذه النظرية فيقول: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾.

إن التوجه إلى الله تعالى من الأمور الفطرية الثابتة في وجود كل إنسان ونجد في القرآن توضيحاً لهذه الحقيقة في آيات عدّة.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف: 172]، تشير هذه الآية إلى حقيقة معينة، وهي أن بين الله عز وجل وبين ذرية بني آدم جاذبية وهم لا يزالون في أصلاب آبائهم وهذه الآية تتحدث بلغة الرمز والإشارة عن هذه الحقيقة ومعنى الآية هو وجود إقرار بوجود الله في أصل خلق الإنسان حتى قبل أن يأتي إلى هذا العالم. وتشمل هذه الحقيقة جميع المخلوقات وليس الإنسان وحده: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أن جميع المخلوقات تتجه إلى الله ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: 1]. وهي في حركة مستمرة، وفي آية أخرى تقول: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: 23]. أي من غير الممكن للإنسان أن يعبد غير الله، لأن الميل الفطري هو التوجه إلى الله، ولكن البعض ينحرف ويخطيء عن معرفة الله فيعبد الأصنام وغيرها.

يقول الفيلسوف الأميركي (ويليام جيمز): إن معظم الميول والرغبات الموجودة فينا هي من الله.

ويقول في كلام آخر: «تقترن حالة الإنسان الدينية بصبغة من السكينة والوقار والشوق واللطف والمحبة والإيثار والتضحية، وهذ الصبغة تجعل الإنسان مبتعداً عن الخفَّة والضحك والفرح المبتذل عندما يحصل على ما يسرُّه كما أن هذه الصبغة تحصّنه من الشكوى ومن التذمر والغضب عندما ينزل به حزن وغمّ،

وهذه الحالة من الوقار والسكينة وجدتها في تجاربي مع الناس، وهذا الفيلسوف متخصص في علم النفس وله كتاب شيّق للغاية، وقد قضى ثلاثين سنة في دراسة ظاهرة الحس الديني لأفراد كانت لديهم توجهات صوفية وعرفانية وهذا مقطع آخر من كلام له حيث يقول متسائلاً: هل العقائد هي التي أوجدت الدين والتدين؟

ويجيب: على العكس إن هذا الحس الديني الذاتي هو الذي أوجد تلك العقائد والفلسفة والعلوم، وأنا مقتنع وبقوّة أن القلب هو منبع الحياة الدينية ومبعث التوجه الديني».

وقد ترجم الدكتور علي شريعتي كتاب إسمه «الدعاء» للكاتب والعالم المشهور «الكسيس كارل» وهو يتحدث فيه عن نظرية الحس الديني، وأنه حسٌّ أصيل في الإنسان فيقول مثلاً: الدعاء هو عروج حقيقي روحيّ إلى الله».

ويقول الكاتب فريد وجدي في دائرة المعارف: «من الممكن أن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن يمحى التدين أو يتلاشى، بل سيبقى إلى الأبد وهذا يدلّ على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يختصر الفكر الإنساني في الحياة المادية الضيقة».

في كتاب عنوانه: «الدين والعلوم» لأينشتاين يقول في مقدمته:

إن الحب والأمل هما عاملان لحركة الإنسان نحو الله، وهما الموجودان للتوجّه الديني، ويقول: أن هناك أيضاً عامل مهم وهو «الخوف»، الخوف من الموت، ومن المجاعة، ومن الحرب، ومن المرض، وغير ذلك من الأحداث المؤلمة. وقد قال أحد الفلاسفة القدماء: «الخوف هو أم الآلهة» وقد أيّد أنشتاين هذه الفكرة وأشار إلى عامل آخر وهو العامل الأخلاقي والاجتماعي ويقول بهذا الخصوص: كل إنسان يرى والديه وقادته الكبار يموتون ويرحلون عن الدنيا تباعاً، ونتيجة لذلك يتولد عنده أمل ورجاء أن يكون له حبيب دائم، وأن يكون هو نفسه محبوباً، فيلجأ إليه ويعتمد عليه ويكون غفوراً رحيماً يحفظ الكائنات ويعطيها الثواب والجزاء، ويحقق الآمال التي لم تتحقق، وينقذ أرواح الموتى من الفساد والضياع، وهذه هي أرضيّة العقيدة الاجتماعية والأخلاقية للإيمان بالله.

ويقول «أنشتاين» الذي ينتمي إلى الديانة اليهودية: إن المسار التكاملي من دين الخوف والأمل يشكّلان خطوة كبرى للإيمان بالله، ويقول: أن العامل الموجود عند الجميع هو الإحساس الديني الكامن في خلقه الإنسان منذ وجد، ولو أن البعض قد لا يشعر بهذا الإحساس كاملاً لأسباب مختلفة.

ثم يقول: إن المعتقد بهذا الدين، يشعر بتفاهة وصغر طموحات الإنسان وأهدافه في هذا العالم المحسوس، ويشعر بالمقابل بالعظمة والجلال المتجليين فيما وراء هذه الظواهر الطبيعية، ويجد أن وجوده في هذا العالم المادي نوعاً من السجن، فيندفع متحرراً من قفص البدن ويدرك أن الوجود كله يمثل حقيقة واحدة.

ثم يقول: بدأت ظواهر هذا الدين وآثاره في بداية التمدن البشري، فمثلاً نجد روح هذا الدين في مزامير داوود وفي كلمات الأنبياء وفي الديانة البوذية التي وردت في كتابات الفيلسوف «شوبنهاور» القيمَّة.

ويعتقد أنشتاين أن الصورة التي يعرضها كتّاب اليهود، وكذلك المسيحية لله، هي بمستوى متدنٍّ لأنهما عرّفا الله بصورة إنسان.

إن الذين تميزوا بالنبوغ الديني على مدى التاريخ رفضوا الإعتراف بالصورة التي يرسمها البشر لله، فهم قد عرفوا الله بالعظمة والجلالة، وهذه المبادىء التي يعتقد بها النوابغد من النصارى الذين يحظون بالإحترام من معاصيرهم لا تستند إلى الكنيسة ومبادئها، والكنيسة تعتبرهم من المنحرفين، ولكنهم هم الموحدون الحقيقيون، لأن عقيدة التثليث ابتدعها أحبار الكنيسة، وقد حاول بعض المعتدلين من النصارى لإظهارها بصورة لا تنافي التوحيد.

وهذا الإله الذي يعتقده أنشتاين ونوابغ النصارى والفلاسفة الإلهيين هو الذي نعتقد به نحن المسلمون ونقول عنه بأنه «أكبر من أن يوصف».

تقوية التوجُّه الفطري:

لقد تبنّى طائفة من العلماء قديماً وحديثاً بأن معرفة الله هي موجودة بفطرة الإنسان.

ولكن ما الذي يجب القيام به تجاه هذا الإحساس؟ إن مهمة العلم إثارة هذا الإحساس، لأنه حسٌّ أصيل، كالحسّ الفنّي، ولذلك لا تحتاج إلى إيجاده، بل نحتاج إلى إثارته وتقويته كما يحتاج صاحب موهبة الفن إلى الإطلاع على الأعمال الفنية ومظاهر الجمال.

إن حس التوجُّه إلى الله يقوى بالعبادة ولا يستغني الإنسان عن هذا العامل المهم، لأن الطرق الأخرى من المعرفة والاستدلال تؤدي إلى الإقتناع العقلي بتوحيد الله.

أما التوحيد العملي لا يكون إلا بإقامة العبادات بشروطها المطلوبة، والعامل الذي يضعف هذا الحس الديني الفطري، هو الرغبات والشهوات التي تسوق الإنسان إلى الغرق في بحر الدنيا وهمومها.

الطريق العلمي أو الفلسفي لمعرفة الله:

الطريق الثاني هو دور العلم والعقل والإستعانة بهما لمعرفة الله عن طريق التفكر بالمخلوقات.

إن استخدام الفكر والعلم والفلسفة في دراسة الموجودات والأمور الحسيَّة توصلنا إلى معرفة الله، حتى بدون عامل الإحساس الفطري.

ـ التعرُّف على النظام الذي يحكم الموجودات، عندما يطّلع الإنسان على أحوال الموجودات، يرى أنها محكومة بنظام دقيق، وأنه لا يمكن أن يوجد هذا النظام من غير وجود منظِمّ يتَّصف بقدرة عظيمة وعالية في التدبير.

ـ والتفكر كيف وُجد هذا الخلق فيقول لا بدَّ من وجود خالق له، ولا بدَّ من البحث عن خالقه.

ـ والإنسان المفكِّر يلاحظ أن كل مخلوق من هذه المخلوقات يتحرك في مسير خاص منظَّم وكأن حركته تصدر عن علم. هذه الأفكار تكشف عن وجود قوَّة معيّنة تهدي هذه الموجودات إلى تكاملها.

والقرآن يدعو إلى معرفة الله عن طريق نظام الخلق وهداية المخلوقات فيقول: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: 1 ـ 3]. فقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ يشير إلى أن الله هو خالق الأشياء.

وقوله: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ أي أنه خلقها معتدلة متوازنة في نظام دقيق وبديع. وقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي أن الله أهداها إلى غاياتها.

والموجودات تتحرك باتجاه التكامل، ولها غاية وهدف معين، وتثير هذه الظاهرة السؤال: بأي قوَّةٍ يصل هذا الموجود إلى الهدف؟ ومثال على ذلك، نرى سلوك الطفل بعد ولادته كيف يبحث عن ثدي أمه، وكذلك أطفال الحيوانات، ويحصل ذلك بدون أن تكون للطفل أي تجربة، مما يدل عن وجود ظاهرة الهداية.

والهداية تشمل كل المخلوقات وتقول الآية الكريمة التي تحكي عن جواب موسى وهارون على سؤال فرعون عن ربهما: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾ [طه: 50]، والقرآن هو الكتاب الوحيد المتميز الجامع، وهو كلام الله الذي: (لا يشغله شأن عن شأن).

هذا المستوى الرفيع من العرفان الذي يذكره القرآن لا نجده في الأديان الأخرى وفي العقائد التي وصفت بأنها تشتمل على معرفة الله كالبوذية وغيرها. والآيات القرآنية التي هي خير دليل على ذلك تقول:

ـ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾.

ـ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٠٣﴾.

المحاضرة الثالثة

إهتمام العرفاء بالطريق الفطري لمعرفة الله:

العرفاء يسمّون القوة المعنوية التي تجذب الإنسان نحو الله «قوة العشق». والعرفاء يتهمون الحكماء والفلاسفة بأنهم لم يدركوا قيمة هذه القوّة المعنوية وقالوا لهم: لا حاجة للإستدلال العقلي، وعليكم بدل ذلك أن تقووا تلك الطاقة المعنوية الموجودة في كل إنسان.

والفرق بين العرفاء وبين الفلاسفة بأن العارف يعتقد بتنمية الإحساس الذاتي. والفيلسوف يعتقد أن الأولوية لتنمية العقل وقوَّة الاستدلال.

إشارة قرآنية إلى العرفان الفطري:

تقول الآية: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 30].

ـ وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

ـ وقال عز وجل: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

الآية الثانية تبين أن أي قوة عاجزة عن بعث الطمأنينة والسكينة في قلب الإنسان سوى الله. ونرى أن الإنسان كلما يصل إلى هدف من الأهداف التي يسعى لها، يملُّ منه ويتوجَّه إلى هدف آخر. والله سبحانه هو الهدف الذي لا يتبدَّل شوق الإنسان إليه، ولا يتمنى غيره عندما يصل إليه. لأن كل الأهداف ما

عدا الله هي أمور مجازية ينجذب إليها الإنسان، وهي لا تمثِّل له المطلوب الحقيقي، ونحن نلاحظ في الآيات الكريمة التي تتحدث عن الجنَّة يقول الله تعالى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ لأنهم حصلوا على المطلوب الحقيقي وعلى كل ما تهفو نفوسهم إليه.

منهج الاستدلال بنظام الخلق المتقن الصنع:

يدل نظام العالم على وجود الله يقول تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍۚ﴾ [النمل: 88]، وقد يسأل البعض ما هو النظام الموجود في هذا العالم؟ والجواب هو: أن العالم لم يوجد بالصدفة، وإذا أردنا أن نعرِّف الصدفة، يمكننا القول أنها تعني عدم وجود أسباب.

ولتوضيح الأمر نعطي مثال: إذا أردنا أن نكتب شيئاً على الورقة، فيجب أن يكون لدينا أربعة أسباب وهي:

- وجود الورقة، ووجود القلم، وكتابة الحروف التي تشكل الكلمات، ووجود هدف للكتابة، كأن يكون رسالة ألى أحد الأشخاص وهل هذه الأمور حصلت بالصدفة.

معنى قول الماديين بوجود العالم بالصدفة:

عندما يقال أن الشيء الفلاني وجد صدفة، فيكون المقصود عدم وجود سبب.

ولا يوجد في العالم من يؤيد هذه الفرضية، لا بين الإلهيين ولا بين الماديين، بل قد لا نجد في العالم كله أي عاقل يفسِّر ما يجري في العالم الكوني هو صدفة، يعني عدم وجود سبب فمثلاً: لا نجد من يقول: بأن الأمطار تهطل تلقائياً دون سبب أو أن الشمس والأرض تدور تلقائياً دون سبب.

وقد يظن البعض، أن الماديين يقولون بأن العالم وُجد من تلقاء نفسه، والواقع أن الماديون لا يقولون بذلك بل يعتقدون بوجود سلسلة دقيقة ومنظَّمة

للغاية من العِّلل والأسباب، وبوجود سبب لكل حادث، ولكن يعتقدون بأن هذه السلسلة غير متناهية ولا تنتهي إلى المسبِّب الأول. والفرق بين الماديين والإلهيين هو أن الماديون ينكرون وجود هدف لهذا النظام الموجود.

أما الإلهيون فهم يعتقدون بأنه من المحال تفسير هذا النظام المتقن في العالم إذا لم يكن له هدف، ولذلك نقول أن لكل فعل هدف معيّن، وأن الفاعل يتحلى بقوة الإدراك، ومعرفة ما يقوم به من فعل، وأن له هدف من عمله. فمثلاً عندما نقرأ كتاباً لمؤلف معيّن، ووجدنا أنه جيد، وإذا سؤلنا من أين عرفتم أنه شخص جيد وأنتم لم تروا هذا الكاتب ولم تشاهدوه؟ والجواب هو أننا اطلعنا على ما يقوله ووجدنا أن له أثر جميل.

فهل يمكن وجود كل هذه الموجودات في الكون دون وجود قدرة قادر عظيم يقول الإمام الصادق ـ : «إذا تأمّلت العالم بفكرك وميّزته بعقلك وجدته كالبيت المبني المجهَّز لكل ما يحتاج إليه عبادهُ، وهذا دليل واضح على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة وأن له خالق».

العلم الحديث يؤيد إستدلال الإلهيين بإتقان الصنع:

العلم التجريبي الحديث توصل إلى معارف عميقة عن دقّة النظام السائد في العالم فمثلاً: توصل علم التشريح القديم إلى أن للعين سبعة أغشية، واليوم يقول العلم الحديث أن أغشية العين سبعة أو ثمانية، وأسماء هذه الأغشية هي نفسها قديماً وحديثاً. والعلم ينكر الصدفة، ويقول أنه لا يوجد شيء بدون سبب وعلّه، ويقول العلماء أنهم على يقين من وجود نظام شامل وأنه لا يوجد شيء في العالم إلاّ وله منشأ وأساس معيَّن، وأن هذا النظام متقن أزلي يحكم أرجاء الكون.

والمؤمن بالله ماذا يقول؟ إنه يقول أن للعالم خالق ومنظِّم واحد أزلي قادر إسمه «الله» يحكم جميع أرجاء هذا الكون. والفرق الوحيد بينهما، هو أن العلم يتحدث عن النظام فقط، والموحّد يصرِّح بأن هناك نظام ومُنظِّم، ويقول القرآن: بأن الله هو الذي فطر السماوات والأرض، وهو الذي أوجد الليل والنهار متعاقبين، وهو الذي يفلق البذرة ويُنمّي الشجرة، ويحيي الميت ويميت الحي،

ويُنزّل الغيث، والقرآن ينسب إلى مبدأ واحد جميع الحوادث والأطوار التي تجري في عالم الطبيعة.

إذن الفرق بين المؤمن الموحِّد وبين العالِم المادي، هو أن المؤمن يتحدث عن الأفعال ويذكر فاعلها، والآخر يتحدث عن الأفعال نفسها ولكن لا يذكر فاعلها فهو مجهول بالنسبة له. ويقول العلماء الماديون؛ كيف يمكننا أن نؤمن بموجود لا نعرفه ولا نستطيع وصفه، وإذا اعتقدنا بوجود الله فعلينا أن نبحث عن وجوده من أين جاء وكيف خلق؟ والأفضل أن لا نخرج من دائرة الأمور الطبيعية المحسوسة.

والجواب على ذلك هو:

أن الله نفسه لم يطلب أن نعرفه كما هو، ولا حتى الأنبياء، بل نهوا عن ذلك، ولا نتوقع من أنفسنا أن نعرف ماهيَّة الله لأن ذلك من المحال.

ولكن علينا أن نشير إلى كل فاعل فعل، ومنظِّم كل نظام.

المحاضرة الرابعة

الإلهامات الفطرية الأخلاقية:

توجد في فطرة الإنسان مجموعة من الأوامر الأخلاقية التي تدعو للقيام ببعض الأعمال وتنهاه عن البعض الآخر وهي عمل الخير التي يقوم بها الناس بدون أي تعاليم دينية:

يقول القرآن الكريم: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾، أي أن الإنسان بفطرته يدرك أن جزاء الإحسان هو الإحسان، فعندما يقع الإنسان في محنة شديدة، كأن انقطعت به السيارة في صحراء قاحلة، ثم وجد صدفةً من يساعده ويقدم له العون بدون أي مقابل، ثم رأى بعد فترة أن هذا الشخص نفسه قد أصابه مشكلة صعبة، فما هو الموقف الذي يقوم به؟ بالطبع إنه سيحاول إنقاذه من تلك المشكلة، والوجدان الإنساني السليم يحكم بذلك لقد وضع الله في نفوس البشر معايير أخلاقية تجعل الإنسان يلوم نفسه عندما يقوم بعمل سيء فيقول الله عز وجل: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ ونرى عادةً المجرمين والجناة يصابون بأمراض نفسية وعصبية وأزمات روحية، والسرّ في ذلك هو عجزهم عن قتل وجدانهم.

فمثلاً: كان «يسر بن أرطأة» أحد قواد معاوية المجرمين لا يتورع عن أي جريمة، ليبثَّ الرعب في قلوب الناس من معارضين معاوية، فكان يذبح الأطفال، وقد قطع رأسي ابني عبيد الله بن العباس وهما طفلان، وكان عبيد الله أميراً على اليمن من قِبَل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بمرأى من والدتهما ثم كانت عاقبته أن

أصيب بالجنون وكان في أواخر حياته يصرخ ويقول أعطوني سيفاً فيعطوه سيف من خشب فيضرب به بدون وعي كل ما يراه أمامه حتى يغمى عليه، وقيل أن الطيار الذي ألقى القنبلة الذريَّة على مدينة «هيروشيما» كانت نهايته في مستشفى المجانين! وقد بالغوا في تكريمه بعد عودته من تنفيذ مهمته، ومنحوه الأوسمة، لكنه غرق فيما بعد في التفكير فيما ارتكبه وأدرك بشاعة عمله ولم يستطع إقناع وجدانه والتخفيف عنه رغم كل المحاولات التي قاموا بها من أجله، فأصيب بالجنون.

المحاضرة الخامسة

من أنواع الهداية للإنسان «العلم الإشراقي»:

هذا العلم هو نوع من العلوم البشرية، وليس من الكتب السماوية التي مصدرها الوحي الإلهي، وذلك بالاستدلال العقلي والتجريبي والحصول على المعلومات من أذهاننا وأفكارنا.

والتفكير هو عبارة عن تنظيم مجموعة من معلومات الذهن بهدف كشف أمر مجهول، ولكن السؤال: هل أن جميع العلوم البشرية هي نتيجة مباشرة لطرق التفكير والبحث والتجارب التي يقوم بها الإنسان للحصول على المعارف، أم أن هناك عامل مؤثر آخر؟ والجواب هو أن الإنسان عندما يتطلع بشوق ويثابر على طلب المعرفة رغم عجزه عن كشفها عن طريق التجارب والقياسات، يدخل عامل آخر يضاف إلى هذه التجارب والأبحاث، فتنقدح في ذهنه فكرة هي نتيجة وثمرة مباشرة لمثابرته وتجاربه فتتلقى النفس نوع من الإيحاء والإلهام وهذا ما يسمى بالحدس أو الإشراق.

وقد تحدّث الكثير من العلماء ومنهم «ابن سينا» عن صحة العامل الإشراقي، وأن بعض النفوس مستعدة لتلقي العلوم دون توسط معلِّم ومقدمات لذلك تنقدح فيها حقائق علمية أحياناً.

والعلماء المعاصرون يؤكدون أهمية المعارف الإلهامية، يقول «أنشتاين» في أحد كتبه: بأن التجارب والأبحاث تولّد النظريات، وأحياناً الفرضيات تدفع إلى

إجراء التجارب أيضاً، والنظريات الكبرى المهمة في العالم تأتي على نحو الإلهام فجأة، وفي حالة معينة في أذهان العلماء.

ويقول: «الكسيس كارل» وهو من مشاهير العلماء الأول في العالم، يقول في كتاب له «الإنسان ذلك المجهول»: إن العباقرة يتميزون بالإلهام والتصور الإبداعي، إضافة إلى الدراسة وفهم القضايا، والإلهام يوصل الإنسان إلى معرفة الحقائق الخفية على الآخرين، وإلى العثور على كنوز الحقائق بالفراسة، وقد يحدث ذلك دون الإستناد إلى أدلّة ودراسة أحياناً.

والإلهام له دور حتى في العلوم الرياضية التي تعتمد على المنطق. ويقول العالم الرياضي الفرنسي «جاك هادامار»: علينا أن لا نتجاهل دور الإلهامات الذاتية التي تنقدح في أذهان العلماء الذين يكتشفون الإختراعات العلمية، وهذه الحالة يشعر بها كل محقّق، وهي ثمرة لقوة الإرادة والشعور والفهم بالإضافة إلى مجموعة من الإلهامات الباطنية.

يقول أحد العلماء الذين اشتهروا بالنبوغ (بوان كاوه): حدث لي مراراً أنني كنت أعرِض عن متابعة دراسات وبحوث علمية، بعد استمراري بالعمل فيها مدةً طويلة، دون الوصول إلى نتيجة ، ثم تنقدح في ذهني فجأةً فكرة أثناء الإستراحة أو التجوال ودون مقدمات، وأجد فيها طريق الحل المطلوب للمعضلة العلمية التي تركتها بعد اليأس من حلها. على أي حال فموضوع الإشراق والإلهام يحتاج بحد ذاته إلى بحث مستقل.

ومنذ القِدم يوجد إتجاهين فلسفيين هما: المدرسة الإشراقية والمدرسة المشائية، وهما ليستا متناقضتين ولكن ثمة اختلاف منهجي بينهما، فأرسطو مثلاً، كان يعتمد بالدرجة الأولى على طريقة القياسات المنطقية والمنهج التجريبي، أما أفلاطون فكان يهتم بالدرجة الأولى بالإلهامات والإشراقات، ويدعو إلى تهذيب الذهن والنفس وبهذا الإستعداد تتلقى النفس االإلهامات والإشراقات، ولذلك سُمّي أتباعه بالإشراقيين، أما أرسطو فقد كان يلقي آراءه وهو يمشي ولذلك سُمي أتباعه بالمشّائين.

المحاضرة السادسة

العلم اللّدني والإلهامي في الكتاب والسنة:

وقد ظهر في العالم الإسلامي هذان الإتجاهان، واهتم العرفاء بالمنهج الإشراقي وأيَّدوه. وإذا رجعنا إلى القرآن والسّنة نجد أن المعارف الإشراقية لها مصطلح آخر وهو «العلم اللّدني» الذي شاع استناداً إلى القرآن وهذا المصطلح مقتبس من الآية القرآنية الواردة في قصة لقاء موسى بالعبد الصالح الذي ذهب موسى مع فتاه للقائه: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: 65]. هذا العلم اللّدني مقتبس من كلمة «لدنّا»، ومعناها أن العلم الذي يفاض على الإنسان من الله، فلا يكون نتيجة للبحث البشري الظاهري واستخدام القياسات والاستدلالات والاختبارات كما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «من أخلص لله أربعين يوماً جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» ومعناه أن من يتحرّر من أهواء النفس ودوافعها الدنيوية على مدى أربعين يوم تبدأ تصرفاته وأفعاله وأقواله تتصف بالحكمة والسّداد.

يقول القرآن عن إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فتصبح جميع أعماله وحركاته وسكناته وأقواله ومنامه وطعامه لله، فيصطبغ بالصبغة الإلهية، وتجري ينابيع الحكمة من باطنه وتنتقل إلى ظاهره ويقول أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة وباشروا روح اليقين واستلانوا ما استوعره المترفون وأنِسوا بما استوحش منه الجاهلون».

وتوجد الكثير من النصوص الدينية التي تشير إلى العلم الإشراقي

والإلهامي، وهي تبيّن حقيقة الإرتباط بين تطهير النفس وتزكيتها وبين الإنتفاع من هذا العلم، فكلما ازدادت النفس طهارة ونقاء إزداد نصيبها من الإلهامات والإشراقات. إذن فالإسلام يؤيد ما يقوله الفلاسفة والعلماء من أن مصدر بعض العلوم هو الإلهامات والإشراقات.

ظاهرة الأحلام والرؤى المنامية:

إن ظاهرة النوم بحد ذاتها هي من الظواهر المهمة، وقد ذكر بعض علماء النفس أن عند الإنسان حاجة نفسية إلى النوم بالإضافة إلى الحالة الجسدية.

والذي يهمُّنا هنا هي الرؤى التي يراها الإنسان في منامه. هناك عدة نظريات لتفسير هذه الظاهرة، والنظرية القريبة من الواقع هي التي تقسّم الرؤى إلى ثلاثة أنواع: بعضها ناتج عن أحوال الجسم وبعضها ناتج عن أحوال النفس والروح، والثالث لا يرتبط لا بأحوال الجسم ولا بأحوال الروح، وهي رؤى نادرة تكون أحياناً ناتجة من الإشراق والإلهام.

القرآن يؤيد حصول الإلهام بواسطة الرؤيا، ويصف الرؤى المنامية التي لا تشتمل على الإيحاءات بأنها: «أضغاث أحلام» أما الرؤى التي قد تكون إيحاء وإلهام مثل رؤيا يوسف النبي عليه السلام عندما رأى وهو طفل، يقول القرآن عن يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾. وقد فسَّر أبوه يعقوب بأنها تعني أنه سيصل إلى مقام سامٍ لا يصله إخوته ووالداه.

كما ينقل القرآن رؤيا فرعون مصر: ﴿إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾، ولم يستطع تفسير هذه الرؤيا سوى نبي الله يوسف عليه السلام الذي سبق أن فسَّر رؤى صاحبيه في السجن. ثم فسَّر رؤيا فرعون: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ﴾.

المحاضرة السابعة

دلائل التوحيد في القرآن:

لقد تم البحث بالطرق التي توصل إلى معرفة الله، وهي:

- نظام الخلق
- الهداية الفطرية
- خلق الإنسان
- البراهين الفلسفية

ولكن أكمل الطرق وأفضلها في إثبات وجود الخالق ومعرفته والتي تتميز بالبرهان العقلي الكامل، والذي يدحض جميع الإشكالات المثارة هو ما ذكره القرآن:

لقد أشار القرآن بأدلّة منطقية وعقلية وفلسفية على التوحيد، فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: 53].

- ﴿شهد الله إن لا إله إلا هو﴾ [آل عمران: 18].
- ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 23].
- ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 42 ـ 43].

ـ ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: 91].

* * *

وهناك بحث آخر من الضروري أن نتطرق له وهو نظرية التطوّر والتكامل المعروفة باسم نظرية «دارون».

نظرية دارون: ظهرت نظرية في العلوم الحديثة، اعتبرها بعض الناس مناقضة للبراهين التي يستدل بها الإلهيون على التوحيد وهي: نظرية التطوّر والتكامل.

هذا البحث هو من بحوث عالم الأحياء والطبيعة ولا ينبغي الخوض فيه لأنه لا يؤثر على التوحيد أساساً. ولكن نستطيع أن نبحث نظرية دارون والتطور على ضوء عقيدة التوحيد. إن قانون التطور ليس مادياً، بل هو قانون إلهي ولكن له بحث مستقل، وهو يعزِّز عقيدة التوحيد، لأن المشيئة الإلهية اقتضت خلق هذا النوع أو ذاك من المخلوقات الحيّة فجأة وبدون سوابق لها.

وقد حاول بعض معارضين نظرية دارون الدفاع عن عقيدة التوحيد والإيمان بالله برفض هذه النظرية، وبالمقابل استدل المادّيون بها وأنها تدل على عدم وجود الله.

ولكن الجميع يعلمون أن دارون نفسه، كان متخصصاً بعلم الأحياء، ولم يكن مادياً بل كان يؤمن بالله والدين وكان يضع الكتاب المقدس على صدرة حتى اللحظات الأخيرة من حياته، وهو لم يستنتج من نظرية التطور وتبدل الأنواع أنها تعني إنكار وجود الله!

من هنا يتضح أن الجهل أو غيره هو الذي جعل من كلا الطرفين يعمدان إلى إلصاق تُهمة الماديَّة على نظرية دارون. وهل إن الإعتقاد بوجود الله يستلزم الإعتقاد بنظرية ثبات الأنواع. وثبات الخلقة التكوينية، وهل تبدُّل الأنواع منافيه لعقيدة التوحيد وما جاء في الكتب المقدّرة (القرآن والتوراة).

إن نظرية تبدُّل الأنواع قديمة باعتراف الجميع وقد نقلتها الكتب الفلسفية، مثل كتاب الشفاء لإبن سينا والأسفار الأربعة للملا صدرا عن قدماء فلاسفة اليونان كما نقلها هؤلاء عن الفلاسفة الغربيون أنفسهم. ونظرية التطوّر والتكامل معروفة منذ 2500 سنة، وهي معروفة للفلاسفة والعلماء منذ القدم، ولكن لم يبينوا تفاصيلها كما فعل دارون وغيره.

وصحيح أن النوع الإنساني لم يتولد من أي نوع آخر، وهو ليس حادثاً ظهر للوجود قبل آلاف وملايين السنين وبصورة مفاجئة، بل هو نوع قديم لا بداية له. ونظرية دارون صحيحة ولكن بحدود معينة.

فعلماء الأحياء ومنهم دارون كانوا ينظرون إلى جانب واحد من القضية ويعمِّمونه عليها برِّمتها، ويجعلونه حكماً عاماً يشمل جميع الحالات وهذا الأمر غير صحيح، والصحيح هو أن الحيوانات المتنوعة كانت بصورها الحاليَّة منذ البداية ولكن هناك بعض الحالات قد تكون صحيحة بأن كان لبعض أنواع الحيوانات الزاحفة أرجل ثم زالت تدريجياً كالحيَّة مثلاً، لأن حركتها هي الزحف، وقد يكون الإنسان سميناً أو هزيلاً حسب الأوضاع والبيئة التي يعيشها ولكن لا يمكن قبول النظرية بالكامل.

المحاضرة الثامنة

أن مسألة التوحيد هي مسألة علمية وفلسفية وعقلية إلى جانب كونها مسألة دينية.

الإسلام يوجب على أتباعه الإعتقاد بالتوحيد كأحد أصول الدين، وأن تكون المعرفة عن تحقيق لا عن تقليد.

ومسألة تبدُّل الأنواع من المخلوقات أو ثباتها هي مسألة فرعية ولا علاقة لها بوجود الله، لذلك لم يحصل تعارض قوي وحاد بين نظرية دارون وبين الفلاسفة لمسلمين، كالتي حصلت مع المسيحية.

موقف المسيحية من نظرية دارون:

هذه النظرية لم تنسجم مع المسيحية من الأصل، ولم يناقشوا هذه النظرية كقضية علمية وعقلية، بل حاربوها لأنها تتنافى مع ما جاء في التوراة التي تقول أن الله خلق آدم على صورته. مع أن دارون كان يؤمن بجميع ما ورد في الكتاب المقدَّس لكن أفكاراً جديدة ظهرت له نتيجة مشاهدة التنوع العجيب في عالم الحيوانات والنبات.

ولكن هذه الأفكار لم تأخذه لعدم الإيمان بالله، بل ترسَّخ عنده هذا الإيمان مع تقدمه في السن وقد صرّح بأن الإنسان يبقى عاجزاً عن معرفة سرّ الخلق ولكن دارون كان يعتقد بصحة نظريته التي تقول: أن جميع أنواع الحيوانات والنباتات ترجع إلى أصل أولي واحد.

وانتهى به الأمر إلى نشر كتابه «أصل الإنسان» وأثار في هذا الكتاب،

وجود الصفات التي يتميَّز بها الإنسان عن الحيوانات، مثل اعتدال القامة وصورة الوجه. وطريقة تحريك اليد وحتى الصفات النفسية مثل التصوّر والتوهم. ولكنه قال: أن وجودها في القرود بحالة ناقصة عن الإنسان، وقال أن هناك تشارك أبناء النوع، والتضحية والعواطف والأحاسيس وخاصة بعض أنواع القرود ثم قال إن هذه القاعدة تشمل الجميع من الإنسان والحيوان وأنهما يشتركا في الأجداد.

وشنّ دارون حرب علنية صريحة ضد رجال الكنيسة وأثار غضبهم لدرجة جعلتهم يحكمون بكفره وإلحاده وإهدار دمه، مع العلم أنه لم ينكر وجود الخالق حتى نهاية حياته.

بعد سنة من موت دارون أثبت العلماء أن خلق الجنين هو اتحاد نطفة الحيوان المنوي مع نطفة الأم (البويضة) وأن الطفل المولد يأخذ الصفات الوراثية من والديه عبر تلك الخليتين. وكان دارون وبعض العلماء يعتقدون أن التغيرات التي تحدث في الكائن الحي هي بتأثير البيئة أو بالتربية والتعليم وعوامل أخرى وتنتقل إلى الأجيال اللاحقة وهذا ما دحضته التجارب والبحوث العلمية المعاصرة التي أثبتت أن الصفات المكتسبة لا تورَّث. وقد قام العلماء بتجارب مثل: قطع الأذناب لفئران متعاقبة عددها «22»، جيل فلاحظوا أن الفأر المتولد من الجيل الأخير ولد بذنبٍ طبيعي وسليم بالكامل.

لقد أثبت علم الأحياء (البيولوجيا) أن الصفات الوراثية تنتقل إلى الأولاد بواسطة مجموعة من الأشرطة موجودة في نواة الحيوان المنوي والبويضة تسمى «الكروموسمات» وتوجد فيها أجزاء أصغر تسمى «الجينات» أو الوحدات الوراثية وهي تتغذى وتنمو وتنتقل بواسطتها من الآباء إلى الأبناء في الإنسان والحيوان مثل الطول والجسم واللون وحتى الصفات النفسية والمعنوية.

المحاضرة التاسعة

شبهة وجود الشرور من زاوية العدل الإلهي:

لماذا وجدت الشرور في هذا العالم مثل المصائب من فقر وظلم وجهل وزلازل وكوارث طبيعة؟ ولماذا وجد هذا التنازع بين البشر؟ ويجيب العلماء الإلهيون ضمن مسألة (الخير والشر): أن وجود الشر هو اعتباري غير حقيقي. ولتوضيح ذلك نضرب المثل التالي:

واضح أن النور موجود والظل موجود أيضاً، وحيثما وجد النور وجد الظلُّ إلى جانبه فإذا سطعت الشمس على مكان معين ونورته ولم تسطع على مكان آخر، كان هناك ظل، فهل توجد حاجة للبحث عن مبدأ الظل؟

وهذا المثال يصدق على عالم الخلق عموماً، فالظلمات والشرور هي العدم. ومن المحال الفصل بين أصول الخير والشر في النظام الكلّي الكوني، بمعنى أن وجود الحياة مثلاً في هذا العالم يستلزم وجود الموت إلى جانبها، وكذلك الحال مع الغنى والفقر، والقوة والضعف، والصحة والمرضى والرضا والسخط، فلا يمكن الفصل بينها.

وهناك مسألة وجود الفوائد والمصالح في الشرور وإعطاء رؤية مختلفة للشرور التي لا مناص منها، لأنها ملازمة لمصاديق الخير، فهي بالإضافة إلى أنها ملازمة للخيرات، فهي تشكل أيضاً منابع لخيرات كثيرة لا يمكن أن توجد لولا وجود تلك الشرور.

ولأن هذا العالم الذي نعيش فيه هو عالم المادة والحركة، وهو عالم متغيِّر ومتبدل، وعالم التضاد والتزاحم فيما بين الأسباب المختلفة.

أما الذين يتمنون أن يكون العالم كامل لا فراغ فيه، ومليء بالنور لا وجود فيه للظلمة، فيردّ عليهم الإلهيون بأن هذا العالم موجود قبل هذا العالم وبعده!

لأن عالمنا الدنيوي الذي نعيش فيه، هو آخر مراتب الوجود، وهو يتحرك إلى الوجود الأول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، إن الله يدير شؤون هذا العالم بإرادة كليَّة وسنّه وقانون عام، وليس بإرادات شخصية وجزئية، والتغير وتبادل التأثير بين أسباب هذا العالم الدنيوي، هي نتيجة طبيعية وذاتية فيه. الله خلق في الإنسان قوى غريزية هي لمنفعة الإنسان، ولكن تجاوز الحدود في النمو والاستقواء يؤثر سلباً على نمو هذه القوى فتتحول إلى شرور.

القوة الغضبية مثلاً عندما تتجاوز الحدود الطبيعة، تؤدي إلى سلب السعادة من المجتمع وتصبح شرّاً للمجتمع، وهي في الأساس خير وليست شر، لأن الإنسان يحتاج إلى الغضب ليدافع عن نفسه عند الخطر.

والغريزة الجنسية هي خير ولكنها شر للزاني، لأن الفساد الأخلاقي والإنحطاط هي مناقضة للنظام الإجتماعي وللقوانين الإلهية التي تقضي باختصاص كل امرأة برجل معين. وحتى في القوانين الوضعية لا يوجد أي دستور في العالم يقرّ الإباحية المطلقة.

وإذا حصر النظام الإسلامي حق تعدد الزوجات بالرجل دون المرأة، فإنه يسعى بذلك إلى تحقيق مصالح معينة للمجتمع.

الشر ليس في أصل وجود الأشياء، والشرور هي أمور عدمية لأن عدم وجود الخير يكون شراً، ولكن إزالتها كليّاً سيؤدى إلى إزالة الأمور التي نسميها خيراً. وإن ما نسمية شراً بالنسبة لشخص معين أو في أحد أجزاء العالم، لكنه خير في الرؤية الكليّة للعالم كمجموع.

أنواع الشرور:

كالفناء والموت للإنسان والحيوان والنبات.

هل توجد فائدة من ظاهرة الفناء والموت، أم لا توجد فائدة؟

إن تعاقب الأجيال يعبّر عن استمرار الوجود، والموت هو تحوّلا وتكامل ولا يعني فناء الوجود. إن الموت بحد ذاته ليس فناء وعدماً، بل هو انتقال من نشأة إلى نشأة أخرى، فالموت هو قبض ورجوع، أو وفاة حسب المصطلح القرآني: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: 42]. ونحن عندما ننظر إلى الموت نجده شراً، ولكنه خير وكمال بالنسبة للموجود واللاحق الذي يعتبر موت الذي قبله ضرورة لوجوده ولأن الموجودات تتعاقب في الكون، كما هي الحال في المناصب الإدارية، قد يكون عزل أحد المدراء شراً له ولكنه خير للذين يخلفونه في منصبه.

فلا يمكن للوجود أن يكون حكراً على فئة معينة والموت ليس فناء وعدم بل هو انتقال من مكان إلى مكان آخر، وكذلك الأمر بالنسبة لاختلاف الناس بين غني وفقير، وقوي وضعيف، وذكي وغبيّ.

إن عدم التمايز بالكامل بين البشر يكون تكرار لإنسان واحد، وهذا يعني أن نحصر الوجود في فرد واحد ونسلب التعدد الفردي والتعدد النوعي العدل يكون بإعطاء كل موجود ما يستحقه، وهو لا يعني المساواة في الصفات والقدرات. إن اللوحة الفنية لا يمكن أن توجد في رسم مجموعة من النقاط المضيئة فقط، كذلك الحال مع الخلق.

هل كان للعامل والفلاح وجود لولا الحرمان والحاجة؟ فالجمال مدين في وجوده إلى القبح، وكذلك الحال في جميع مظاهر الخير. فظهور عظمة العظماء هو نتيجة لوجود آخرين يفتقدون خصال العظمة والكمال، فلا يمكن أن نصِف الجبل الشاهق بالعلو والعظمة، إذا لم يكن هناك سهل ووادٍ ومناطق منخفضة، والأمثلة كثيرة جداً...

المصائب والشدائد منشأ للخير والتكامل:

هناك من يسأل ويقول: لماذا تشتمل الحياة على نزول المصائب بالخلق؟ وهل توجد فوائد من الشدائد والعداوات والتنافس والحروب والأمراض؟

نحن نعتبر أن السلامة والصحة والقوة والثروة والأمان من مظاهر الخير، وهي كذلك بالفعل، لكننا لو نظرنا إليها من زاوية أخرى كالأعراض التي تنتج عنها، نجدها أنها ليست خيراً مطلقاً. فالقوّة غالباً تولد الغرور الذي يجلب بدوره الشقاء والثروة التي تجرُّ إلى الفساد والصحة والسلامة سبب للغفلة المؤدية في نهاية المطاف إلى الشقاء، والأمن من الأعداء يولد الكسل وغيره ونجد أن الضعف والفقر مثلاً يسوق الإنسان إلى السعي من أجل التقدم.

حقيقة السعادة والسبيل إليها:

الإنسان يتوهم أن السعادة تكمن في القوة والثروة والسلامة وهذا وهم باطل، فكثيراً ما ساقت القوة والثروة الأقوياء والأثرياء إلى متاهات الشقاء. فما هو السبيل إلى السعادة وكيف يحصل عليها الإنسان إذن؟

هل هي في تحقيق الآمال والطموحات أم الرضا والقناعة بالأوضاع الموجودة فعلاً؟

إن الأمل بالحصول على شيء معين، يعبر عن فقدان الإنسان له والشعور بفقدانه يدفعه من أجل الحصول عليه، وإذا أراد الإنسان أن يكون سعيداً، فعليه أن يسعى باستمرار برغبة وأمل للحصول على ما يفتقده في حين أن حصوله منذ البداية على كل ما يريد يعني موت الأمل فيه، وهذا أشد أنواع الشقاء. والإنسان يطلب الشيء مال دام لا يملكه، فإن حصل عليه ملَّ بسرعة وتحوَّل لطلب آخر.

الحرمان هو وقود التحرك والسعي والإبداع:

الإنسان يطلب ما هو محروم منه، لذلك يشكل الحرمان دافعاً أساسياً للتحرك والعمل، ولا يوجد أي عامل يضاهي في قوته قوة الشدائد والمصائب في

تفجير طاقات الإنسان ويقال أن الروائع العالمية التي أبدعها الإنسان هي وليدة عاملين هما: العشق والمصاب، إن أجمل قصائد الشعر صدرت من شعراء عانوا الفراق ولم يصلوا إلى ما يعشقون، ولأن الوصال هو فاتحة الخمود.

المصيبة التي جعلت الشاعر «أبو الحسن التهامي» يقول قصيدته التي أبَّن فيها ابنه عندما فُجِع بوفاته، والتي لا تزال تهز وجدان كل من يقرأها:

حكم المنيةِ في البريةِ جارِ ما هذه الدنيا بدار قرارِ

وكذلك قصيدة حافظ الشيرازي التي قالها عندما فقد ولده وهي من القصائد التي لا يخف تأثيرها من النفوس.

المصائب والشدائد تفجّر طاقات الإنسان وتترك الأثر الكبير في نفسه ويقال أن المكانة التي حصل عليها اليهود، كانت نتيجة لعاملين:

الأول: هو شدة التزامهم بقوانينهم وشرائعهم الخاصة بهم كقومية إسرائيلية.

العامل الثاني: هو تعرضهم لكثير من المصائب والشدائد مما جعلهم يسيطرون اليوم على نصف العالم إن لم نقل كلّه.

إن عشرة ملايين يهودي يسيطران اليوم على 700 مليون مسيحي، ويستعمرون بلدانهم في الواقع لأن ما عاناه اليهود من مصائب وشدائد قد ساهم بنصيب وافر في حصولهم على ما يتميزون به اليوم من قوَّة ووحدة.

والقرآن الكريم لا يعتبر البلاءات شقاء بل هي إمتحان واختبار ويقول عنها: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: 35].

وفي آية أخرى يقول عز وجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: 155].

إن الفوز والنجاح هو حليف من يستطيع عبور أمواج البلايا والصعاب، ولا يمكن للإنسان أن يتعلم السباحة ما لم ينزل في البحر ويخوض غماره، ولن تنفعه كتب تعليم السباحة لأن التجربة العملية هي الأساس، وعندما يسقط الإنسان في

الماء ويشعر بخطر الغرق، عندئذ يضطر إلى تفجير طاقاته ليتعلم السباحة. خلوّ حياة الإنسان من المصاعب والشدائد تفتح الطريق أمامه للفساد والدمار.

تعويض التمييز في الحياة الأخرى:

إن مسألة وجود الظلم في الحياة الدنيا والتفاوت بين المخلوقات، هي مسألة صحيحة إذا لم نقرنها بوجود الحياة الأخرى، والقيامه هي المرحلة الأخيرة في مسيرة الإنسان، وهي تعني انتقال مخلوقات هذا العالم الدنيوي من نشأة إلى أخرى، وتحولها من نشأة ابتدائية ملكية، إلى موجودات روحانية ملكوتية وهذا التحول ليس للتعويض وجبر النقائص، وإن كان هذا الأمر يتحقق فيه حتماً، فالبلاءات والموت وغيرها من الأمور التي ننظر إليها أنها شر، فهي تساعد الناس للوصول إلى كمالاتهم الوجودية، وبعضها الآخر قد تظهر لنا بأنها خير ولكنها في الحقيقة هي مضرّة.

النظام الكوني قائم على أساس الخير، أما الباطل والشرور فهي أمور عرضية زائلة، قد يسأل سائل، لماذا لم يخلق الله هذه الدنيا منذ البداية جنَّة خالدة، كما هي في الحياة الأخرى وأن لا يكون فيها بلاءات ومصاعب.

والجواب أن الذي يمتلك كل شيء في هذه الدنيا، كحال من لا يمتلك شيء.

فنحن نلاحظ أن الإنسان يفرح ويسعد بالشيء الذي يحصل عليه، لأنه كان يفتقر إليه ويحتاجه، وهو يعيش هاجس احتمال فقدانه له. فإذا زالت هذه الحالة وأَلِف امتلاكه، تبدّلت حالة الفرح به إلى حالة البرود واللامبالاة. ومهما حصل الإنسان على أمور تفرحه في هذه الدنيا، سيضعف تعلقه بها عندما يحصل عليها، ولا يروي عطشه الغريزي ومطلوبه الحقيقي الذي يطلبه بفطرته إلا في العالم الأخروي. ويقول الله تعالى عن الجنة الموعودة في الآخرة: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا ١٠٨﴾ فالدنيا مرحلة مؤقته للسعي والحصول على المطلوب الحقيقي في الآخرة وهو السعادة الدائمة.

المحاضرة العاشرة

الله خلق الخير وخلق أسباب الشر:

القرآن يصرِّح بأنه خالق كل شيء، فهو ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، وهو خالق أسباب السرور والحزن ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ [النجم: 43]. ولكن معنى الخير والشر يختلف عما يفهمه معظم الناس، أو ما تفهمه بعض الأديان، فالأمور بالنسبة للقرآن تنقسم إلى قسمين: نافعة وضارّة.

إن معظم الأمور التي تعين الناس على الوصول إلى كمالهم الوجودي تكون نافعة، وبعضها الآخر يزاحم الآخرين ويعرقل حركتهم للحصول على كمالهم، فتكون وجودات شريرة وضارّة بالنسبة للآخرين. أما التمييز بالنسبة للعطاء الإلهي للبشر، فهذا التمييز غير موجود، ولكن يوجد تمايز فالتمييز يعني إعطاء موجود إمكانات وجودية معينة ومنعها عن الآخر. وهذا التميز غير موجود في عالم الخلق، والله سبحانه يوصل لكل موجود حقه من العطاء ولكن التمايز ناشىء عن اختلاف في الإستعدادات الذاتية بين البشر، فهناك موجودات عاجزة عن تلقي أكثر مما هي مستعدة له في العطاء وهذه الآية الكريمة تبين هذا السرّ من خلال مثال تضربه. وهي قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ﴾ ثم تختم الآية بالقول: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: 17].

الآية الكريمة تلفت إلى أن الوديان والأنهار تأخذ من الماء النازل من السماء بقدر ما تتسع له، وما تأخذه الوديان والأنهار من الماء يتحول إلى سيول

تحمل على سطحها الزبد، كالزبد الذي يظهر عند تذويب المعادن من الذهب والفضّة وغيرها وهذا الزبد مادة زائدة تغطي المادة الأصلية، ولكن المعدن المفيد يبقى لصنع الأشياء المفيدة وأما الزبد الذي يطفو فوق المادة الأصلية فيذوب ويضمحل ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي أن الحق والخير والعطاء ينزل كالماء النازل من السماء، فهو عطاء نقي خالص وطاهر، والباطل والشر هو كالزبد الذي لا يدوم ولا يبقى.

الموجودات كمثل الوديان والأنهار كل يأخذ حسب استعداده وسعته، والاختلاف هو في تلقي العطاء.

النظام الكوني نفسه قائم على الخير، وأما الشر والباطل الموجود في طيات الوجود، فهو عارض وزائل.

وفي الآيات التي تتحدث من وصف الملائكة لبني آدم بسفك الدماء والإفساد في الأرض، حيث تقول: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: 30]. وهذا الفساد هو نفسه الشرور التي تصدر من الإنسان، وأبشعها قتل بعضهم بعضاً ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ويتابع القرآن عرض هذه الواقعة فيقول: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: 31 ـ 32]. هذه الآية من الآيات التي تطغى عليها الرمزية والتي تشتمل على حقائق عميقة وفيها من الحقائق التي لا يستطيع أن يدركها الجميع ولا يمكن الوصول لها إلا بالارتفاع إلى مستواها لكي تُفهم.

فالأسماء هي عناوين للحقائق التي علَّمها الله للإنسان ثم سأل الملائكة عنها فلم يعرفوها: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: 33].

عندما وصف الملائكة آدم بسفك الدماء، عرَّفهم الله بأنهم لا يعرفون حقيقة هذا الموجود سوى هذه الناحية من طبيعته، وجهلوا بأنه مؤهل لبلوغ مقامات

تجعله معلِّماً لهم. وبعد ذلك جاء الأمر الإلهي بالسجود لهذا الموجود: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ﴾ [البقرة: 33].

وفي آية أخرى تقول: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: 35] تشير هذه الآية إلى أن ليس كل ما نسميه خيراً هو خير بالكامل، وكذلك الحال بالنسبة للشر، لأن المهم هو الصورة النهائية، فكثيراً ما يحدث أن يهبنا الله نعمة وخيراً إمتحاناً وفتنة لنا، ولكن طريقة تعاملنا تؤدي إلى تحويلها إلى سبب لفسادنا فتكون شراً لنا.

في حين قد يصيبنا شر يكون سبباً ودافعاً لإصلاحنا، ويقول الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ﴾ [البقرة: 216].

الثمرة الأصلية للامتحان هو تكامل الإنسان، لأن الاستعداد والطاقات الموجودة في بني آدم، لا تتحقق إلا بالتعرض للبلاء فتنمو قوى الإنسان وتتطور قدراته بعد أن يدخل معترك الحياة فيتعرّض للبلاءات والإمتحانات، لينجح في النهاية في تفجير طاقاته الكامنة في النفس، ويصبح صبوراً قوياً ومؤهلاً للرحمات الإلهية.

فهرست المحتويات

كلمة المؤسسة 3
المحاضرة الأولى 4
الإيمان بالغيب: 4
المقدمة الأولى: 4
المقدمة الثانية: 5
المقدمة الثالثة: 5
المحاضرة الثانية 7
يوجد ثلاث طرق لإثبات وجود الله: 7
طريق الفطرة: 7
في كتاب عنوانه: «الدين والعلوم» لأينشتاين يقول في مقدمته: 9
تقوية التوجُّه الفطري: 10
الطريق العلمي أو الفلسفي لمعرفة الله: 11
المحاضرة الثالثة 13
إهتمام العرفاء بالطريق الفطري لمعرفة الله: 13
إشارة قرآنية إلى العرفان الفطري: 13
منهج الاستدلال بنظام الخلق المتقن الصنع: 14
معنى قول الماديين بوجود العالم بالصدفة: 14

العلم الحديث يؤيد إستدلال الإلهيين بإتقان الصنع: 15
والجواب على ذلك هو: 16
المحاضرة الرابعة 17
الإلهامات الفطرية الأخلاقية: 17
المحاضرة الخامسة 19
من أنواع الهداية للإنسان «العلم الإشراقي»: 19
المحاضرة السادسة 21
العلم اللّدني والإلهامي في الكتاب والسنة: 21
ظاهرة الأحلام والرؤى المنامية: 22
المحاضرة السابعة 23
دلائل التوحيد في القرآن: 23
المحاضرة الثامنة 26
موقف المسيحية من نظرية دارون: 26
المحاضرة التاسعة 28
شبهة وجود الشرور من زاوية العدل الإلهي: 28
أنواع الشرور: 30
المصائب والشدائد منشأ للخير والتكامل: 31
حقيقة السعادة والسبيل إليها: 31
الحرمان هو وقود التحرك والسعي والإبداع: 31
تعويض التمييز في الحياة الأخرى: 33
المحاضرة العاشرة 34
الله خلق الخير وخلق أسباب الشر: 34